مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 02 السنة 2021 ص 369 - 387

تاريخ الإرسال: 2020/01/19 تاريخ القبول: 2020/11/01
تاريخ النشر: 2021/04/30

عبد الحميد بن باديس ناثرا
Abdelhamid Ibn Badis as a Prose-Writer

عطواني عبد الحميد
جامعة أدرار . abd.atouani@univ-adrar.dz

الملخصّ:

عجّت الكثير من الكتب والدّراسات بالحديث عن عبد الحميد بن باديس الإمام المصلح والمفكّر المربّي متجاهلة إسهاماته البارزة في تحرير اللّغة العربيّة من ركاكة طبعت مضامينها وتكلّف غلّف بناءها، متغافلة عن دوره في إثراء الفنون الأدبيّة الجزائريّة نثرها وشعرها؛ لذاك حاولت في هذه الدّراسة أن أسلّط الضّوء على هذا الجانب المغمور من إنجازاته من خلال تتبّع ما أفرزته قريحته الأدبيّة في فنّ الخطابة والرّسائل والمقالات، فعبد الحميد بن باديس الأديب لم يأخذ بعد حقّه من الدّراسة و البحث في هذا الحقل.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى أنّ قوّة عبد الحميد بن باديس الأدبيّة تكمن في بساطة أسلوبه و موضوعيّة طرحه و قوّة حجّته، فعلى الرغم من أنّ ابن باديس تشرّب اللّغة من أمّهات الكتب العربيّة إلاّ أنّ اللّغة لم تكن عنده هدفا، وإنّما كانت وسيلة حتى يستدرك جهل الشّعب الجزائري و قلّة و عيّه.

الكلمات المفتاحيّة: عبد الحميد بن باديس، النثر الجزائري، التّكلّف والصّنعة، بساطة الأسلوب، الموضوعيّة.

Abstract:

A multitude of publications like books and articles have dealt extensively with Abdelhamid Ibn Badis as an *imam,* a reformer, a thinker and educator, but not as a prose-writer who liberated Arabic writing from prosaicism in its contents and artificiality in its structure. Thus, they neglected his role in enriching Algerian prose and poetry literary arts. That is why I tried in this study to shed light on this little known aspect of his achievements by examining what his genius had produced in the oratory art, letters and articles. Abdelhamid Ibn Badis has not yet got his share of study.

This study was summarized to the literary power of Abdelhamid Ibn Badis which was based on his easy style, objective show and the power of argument in spite of the fact that Ibn Badis was taken the classical Arabic from its original source therefore, the language for him was not a purpose itself ,but a means so that the Algerian people make up his little conscious.

Keywords: Abdelhamid Ibn badis – Algerian prose – artificiality – simplicity of style – objectivity**.**

المؤلف المرسل: عطواني عبد الحميد ، ATOUANIHAMID@GMAIL.COM

مقدّمة:

يُتواتر لدينا أنّ الأدب لسان الحياة النّاطق يكشف عن واقعها المحظور حينا، ويثلج الصّدور و يملأها حبورا حينا آخر، فهو مرآة تعكس ما نعيشه بعتمته و نوره، بقوّته وضعفه، بازدهاره أو احتضاره؛ فإذا كانت الحياة خلاّقة مشرقة أينع الأدب باقات من الإبداع والجودة، وإذا تلبّد الواقع بالمآسي أصيب الأدب بالجمود والرّداءة.

ولمّا فرض الواقع المتدهور للمجتمع الجزائري مع بداية الاحتلال الفرنسي في جميع مجالات الحياة خاصّة مجال الثّقافة و الفكر انتكاسة قويّة أصابت الأدب في

مقتل ورمته بالوهن والضّعف كان لزاما على القريحة الأدبيّة الجزائرية أن تستلهم ممّا أبكاها دما ودموعا نباهة وعبقرية؛ حتّى تخرج من واقع مرير وقعت فيه قصرا وعانت تَبِعاته دهرا من الزّمن، فالنّبهاء يولدون وقت الأزمة.

وعبد الحميد بن باديس نبيه زمانه تمخضت فطنته عن معاناة فرديّة وجماعيّة تركت نَدَبَات معنويّة وفكريّة خلاّقة، تغذّت بمناهل دينيّة, وعلميّة واسعة، أشعل بفضلها فتيل يقظة أمّة بأكملها؛ فلم تقتصر عبقريته على إصلاح عقيدة الجزائريين وعقليتهم كما ركّزت عديد الدّراسات – وهذا ما تهدف دراستنا إلى تبيانه –، بل تعدّته إلى النّهوض بأدب كان قبله حبرا على ورق، ينطق كلمات متراصّة لا تغني قارءها إفادة، ولا تسمنه إمتاعا، إلى أدب يرتوي قارءه إلهاما، ويطلب الاستزادة من مواضيعه منفعة وإفهاما، تبنّى فيه ابن باديس قضايا مجتمعه، فتقصّى ثغراته ليسدّها، وتتتبّع إنجازاته ليثمّنها ويشيد بها.

وقد طرق ابن باديس الأدب شعره ونثره، لكن لمّا انتزع النّثر راية الرّيادة من الشّعر لأنّه كان أكثر وفرة وحضورا في السّاحة الأدبيّة، وذلك لطبيعة النّشاط الفكري والسّياسي والاجتماعي آنذاك؛ فقد جال قلم عبد الحميد بن باديس في كثير من فنونه وأغراضه، فساهم في الخطابة والرّسائل، وأدب الرّحلة والتّراجم من الفنون النّثرية القديمة، والمقال والقصّة من الفنون النّثرية الحديثة، فكان من بين الأدباء الرّواد الذين أجادوا صناعة النّثر، بعدما رسف كثيراً في أغلال الصّنعة والتّكلّف.

لكنّ المتتبّع لنتاج عبد الحميد بن باديس النّثري سيجد أنّ فنون الخطابة والمقالة والرّسائل تتربّع على القسط الوافر من كتاباته، لذلك حاولت في هذه الدّراسة التركيز عليها، معتمدا في قراءتها على الوصف والتّحليل، مجيبا عن تساؤلات كثيرا ما تطرح، فعلى سبيل الذكر: ما ملامح الأسلوب الباديسي؟ وما المضامين التي

غلّفت موضوعات كتاباته؟ إلى أيّ مدى استطاع نتاجه النّثري استمالة الجماهير الجزائريّة و التأثير فيها؟ وما السّر وراء هذا التّأثير؟

1- الخطابة:

لقد كان لزاماً على عبد الحميد بن باديس وهو أحد قادة الكفاح الفكري والسّياسي أن يتقن أبجديات هذا الفن لأنّه السّبيل الأمثل للاتصال المباشر بالجماهير في شتّى أنحاء الوطن، وبثّ الفكرة الإصلاحيّة فيهم فكان يخطب في العامّة والخاصّة، يخطب في العامّة أثناء رحلاته و تنقّلاته التي يقوم بها في مختلف أرجاء البلاد على مدار السّنة...وكان يخطب في الخاصّة في لقاءات جمعية التّربية والتّعليم، و في مؤتمرات جمعية العلماء واجتماعاتها الدّوريّة والسّنويّة[1]؛ فجاءت خطبه تحمل أغراضا ذات صبغة دينيّة، اجتماعيّة، سياسيّة والجدير بالذّكر هنا أنّ هذه الأغراض قد تحفل بها خطبة واحدة تبعاً لمقتضيات الموضوع المتطرّق إليه. وهي في طابعها العام تحمل طابع الدّين والوعظ والتّركيز على فكرة الإحياء والرّجوع إلى الماضي و الدّعوة إلى النّهوض واليقظة[2].

وهي من حيث البناء تقوم على ثلاثة أقسام: مقدّمة، موضوع، وخاتمة؛ أمّا المقدّمة فغالباً ما كانت تأتي مسجوعة، مخيّرة اللّفظ، وذلك لاستمالة المتلقين، قصيرة في معظمها يحتذي فيها خطب الرّسول صلى الله عليه وسلّم، وخطب الخلفاء الرّاشدين، ومن ذلك فاتحة خطبته التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب إدارة الجمعيّة: "الحمد للّه معطي الفلج لباذلي المهج، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد اللّه الذي جاءنا بها حنيفية سمحة لا إصر فيها ولا حرج وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه فرسان الرهج، الذين أقاموا بالحق كل عوج، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين عدد من دب ودرج ..."[3].

أمّا موضوعها فكان ذا صلة شديدة بالواقع، توخّى فيه ابن باديس مخاطبة العقل لا تهييج العواطف، وتوسّل إلى ذلك بجملة من الأدلّة المنطقية والبراهين الإيمانية والأدوات التّقريرية[4]؛ وهذا يعود إلى أنّ عبد الحميد يركّز على توضيح المعنى والقصد في القول لا على زخرف اللّفظ ورتابة الإيقاع، إذ أنّه من خطباء المعاني لا الألفاظ[5]، وهذا ما ساعده على استقطاب وتعبئة الجماهير وإيقاظ عقولها.

ولأنّ غاية ابن باديس كانت توصيل الأفكار، جاء أسلوبه في خطبه واضح التّعبير، كثير التّفصيل، سلس المعاني قوي التّأثير، فبدت معظمها محرّرة من مظاهر الصّنعة البديعيّة والزّخرف اللّفظي[6]، إلاّ ما جاء عفو الخاطر، أو ما تقصّده عبد الحميد في مقدّمات خطبه كما ذكرنا سلفاً، أو ما تعمّده من وقفات فنيّة في صلب موضوع بعض خطبه لاستمالة آذان السّامعين لها واجتذاب عقولهم لتدبّر معانيها وذلك لتقرير المعنى في الأذهان وتوضيحه لا رغبة منه في إظهار القدرة البلاغيّة والبراعة اللّفظيّة[7]، ومن هذه الخطب ذات المسحة الفنيّة خطابه الذي ألقاه في عرض حالة الجمعيّة الأدبيّة والذي يقول في جزء منه: «...حوربت فيكم العروبة حتى ظن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلا والمفاصل»[8].

كما هو ظاهر الفقرة تفيض بالتّصوير الفني والخيال الحسي و الألفاظ الموحيّة بمعناها لا بانسجام حروفها وتناغم بعضها بعضا؛ ذلك أنّ اللّغة عنده ليست هدفا، وإنّما أداة ووسيلة لإيصال أفكاره وإفهامها.

وما يمكن أيضا أن نلمحه في هذه الخطبة قدرة ابن باديس على سبر أغوار واقع الجزائريين وملامسة دائه والوقوف على دوائه؛ ففي كلّ مرّة كان ابن باديس يذكّر فيها الجزائريين، بما يعيشونه من اضطهاد في عروبتهم أو إسلامهم أو علمهم

أو فضيلتهم إلاّ وذكر لهم سرّ التّخلص منه وسبل دحضه، كما جاء في باقي الخطبة، وهذه الواقعيّة في تناول خطبه جعلته يجنح إلى الموضوعيّة في عرض أفكاره وينشدها منهجا وهدفا في معالجة موضوعاته على اختلاف أغراضها، وهي ميزة طبعت نتاجه الخطابي بل مجمل نتاجه النّثري.

ويمكن- لو جاز لنا- أن نقيس موضوعيّة خطبه باستشهاده الكثير بالقرآن الكريم والحديث الشّريف والشّعر والأمثال العربيّة؛ إذ لم يكن يدافع عن مسلّماته الفكريّة بقناعات ذاتيّة وتصوّرات خياليّة بعيدة عن الواقع، وإنّما من حجج منطقيّة وبراهين ثابتة لا مجال لتفنيدها أو الشّك في مصداقيتها، ومن ذلك وصفه لبعض من انشق عن الجمعيّة وناصبها العداء بعدما عرفوا أنّها تحارب كثيرا من الآفات الاجتماعية التي هم مصدرها لأنّهم كانوا ذو خلفيّة طرقيّة؛ إذ يقول واصفا إيّاهم في الخطاب الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز الجمعيّة بنادي التّرقي بالعاصمة:

"وكانوا والجمعية كما قال كثير:

وكنا سلكنا في صعود من الهوى فلما توافينا ثبت وزلت

وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا فلما تواثقنا شددت وحلت

﴿...فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَ َنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيْهِ اللّهُ أَجْرا عَظِيْمَا﴾ سورة الفتح (الآية: 10)"[9].

أمّا الخاتمة في خطبه فكانت تأتي قصيرة ذات طابع ديني محتذياً في ذلك النّموذج الخطابي التراثي حتّى لتكاد تقتصر على معاني الدّعاء بالخير والصّلاح والتّقدّم لعامة المسلمين وللإنسانية جمعاء[10]، ومن أمثلتها قوله في خاتمة الخطبة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب إدارة الجمعية: "...هذه مواقف جمعيتكم- أيها الإخوان- عرضتها عليكم في إيضاح وإيجاز، واللّه اسأل أن يثبت أقدامنا في مواقف الحق كلها في الدنيا وفي مواطن السؤال والجزاء في الأخرى.

﴿يَومَ تَأتِي كُلَّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَّفْسِهَا وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُم لاَ يُظْلَمُونَ﴾ سورة النحل (الآية: 111) .آمين يا رب العالمين»[11].

وبما أنّ عبد الحميد بن باديس كان كثير التّرحال والمهام فقد كان يرتجل الكلام في معظم خطبه لكن وهو يرتجل يختصر الكلام أمّا حين يكتب يطيل ويفصّل ولا يوجز[12]، وفي كلا الموقفين أبان عن مقدرة خطابية شهد له بها العدوّ قبل الصّديق حيث اعترفت جريدة le petit matin* بهذه الموهبة الخطابية التي تتمتّع بالقدرة على التأثير والإقناع قائلة: «...والشيخ ابن باديس يمثل حقا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام و بصوته الناري يستفز الجماهير، فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة السلام... لقد يستطيع ان يفعل ما يريد في الجموع التي كانت بالأمس تستمع الى خطابه كان يستطيع ان يجعل منها سرابا من الطيور الكاسرة، أو قطيعا من الخرفان، وهذا ما نستطيع ان نصف به هذا الرجل الخارق للعادة»[13].

كما شهد قراء الفرنسيّة من الجزائريين الذين كانوا يهرعون لسماع خطبه على الرّغم من ضعفهم في اللّغة العربيّة بمقدرته الخطابيّة وتأثّرهم بها حيث قالوا:«إنّه يؤثّر فينا بعربيّته أكثر ممّا يؤثّر فينا غيره بفرنسيته، لأنّه يملك من وسائل التّعبير عن الشّعور الجزائري العام ما لا يملكه غيره، فشخصيته وإشاراته، و وضوح ما يدعو إليه و إخلاصه للمبدأ الذي يعمل له كلّها تعبر عن رأيه تعبيراً لا يقلّ عن فصاحة لسانه و سحر بيانه»[14].

2- المقال:

تفطّن عبد الحميد بن باديس كغيره من مفكري ومناضلي عصره لما للصّحافة من أثر في يقظة الشّعوب وبثّ الوعي الدّيني والاجتماعي والسّياسي فيها فأنشأ جريدة "المنتقد" سنة 1925م، ولمّا عطّلت هذه الجريدة من قبل السّلطات الاستعمارية أخلفها بجريدة الشّهاب (1925-1939) الأسبوعيّة واقتفى فيها آثار سابقاتها مبادئاً

وأفكاراً، ومضموناً و شكلاً[15]، وحمّلها شعارات المنتقد نفسها؛ وقد كانت مقالاته عبر صفحات جريدتيه واحدة من الجبهات التي كثيراً ما أثلجت صدور الجزائريين بجرأتها في الذود عن حقوقهم المهضومة وحريّتهم المسلوبة، وكثيراً كذلك ما أوجعت العدو الفرنسي بنقد سياساته وفضحها في الدّاخل والخارج.

وبذلك احتلّت المقالة عند ابن باديس حيّزاً واسعاً من اهتمامه فأجاد في كتابتها موضوعاً، وأسلوباً، وبناءً، بل إنّ فنّ المقالة عرف على يده رفقة أقرانه من رجال الفكر الإصلاحي نقلة ملحوظة في نوعيّة الموضوعات وفي طرق التّناول وفي وجوه الصّياغة[16].

وبما أنّ الجزائريين كانوا يعيشون تهتّكاً وتصدّعاً في مختلف مجالات الحياة عالج عبد الحميد بن باديس قضاياها في مقالاته؛ فتنوّعت موضوعاتها من علميّة دينيّة، وإصلاحيّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، حتّى أضحت لسان الأمة النّاطق بواقعها والمعبّر عن تطلّعاتها، وهذا جزء من مقال ذو صّبغة اجتماعية يعبّر فيه ابن باديس عن رغبة الجزائيين في التّعلّم تحت عنوان "في سبيل التعلم والتقدم" يقول الإمام: «ما من شك في ان الشعب الجزائري شعر بسوء الحالة التي وصل إليها في جميع نواحيه. وما من شك في انه قد آلمه ما شعر به فأخذ يعمل للتخلص من تعاسته والنهوض من كبوته بكل ما يستطيع.

الشعب الجزائري شعب مسلم طبعه الإسلام على تعظيم العلم، وحب التعلم، واحترام المتعلمين، فلما دبت فيه الحياة وهب للنهوض اندفع للتعلم اندفاعاً أدهش قوماً وحيّر آخرين...»[17].

هذا الجزء من هذا المقال يعكس إحساس عبد الحميد بواقع الجزائريين وتطلّعه لتلاشي الظّلام الذي يخيّم عليهم، وهو الإحساس العام الذي نجده في جميع مقالاته

على اختلاف أنواعها، ممّا جعل الشّغل الشّاغل له وهو يدبّج ما يدبّج من مقالات في إيصال أفكاره وتصوّراته بأوضح بيان، وأبسط صورة.

ولأنّ المقالة الباديسية يغلب عليها الطّبع الذهني والرّوح الإصلاحيّة تميّزت بأسلوب صريح مباشر وقوي وقصير الجمل ومركّز ومفحم للخصم، وطافح بالسّخرية اللاّذعة خصوصاً عندما يكون الأمر متعلقاً بمناقشة المتهجمين على الشّخصية القوميّة سواء كانوا جزائريين أو أجانب[18]، وهذا ما نجده في مقاله "كلمة صريحة"الذي ردّ فيه على فرحات عباس بعدما أنكر وجود القوميّة الجزائريّة في التّاريخ حيث يقول: "حقا إننا نعيش في وسط سادت الفوضى فيه من جميع جهاته فمن فوضى في الدين إلى فوضى في الأخلاق، إلى فوضى في الاقتصاد، وزادتنا الأيام على ذلك فوضى جديدة ربما كانت أخطر الفوضات وأشدها تأثيرا على حياة الأمة وهي فوضى التكلم باسم الأمة.

فما من متكلم في أي مناسبة من المناسبات إلا ورفع عقيرته مدعيا بأنه إنما يمثل الأمة الإسلامية قاطبة في هذه البلاد وان الكلمات التي يقولها من عند نفسه إنما هي كلمة الحق و قولها الفصل..."[19].

إنّ جانب النّقد اللاذع والجرأة لظاهر بأسلوب صريح في الردّ على دعاة الاندماج والتّجنيس في هذه المقالة التي تعبّر عن نهج عبد الحميد في الدّفاع عن كلّ ما يمسّ الجزائريين والجزائر.

وحتّى تصل أفكار ابن باديس بأسلوب مباشر وواضح اهتمّ باللّغة من حيث مفرداتها وأيضاً من حيث أصالتها وقدرتها على تبليغ الأفكار، بل والعناية ببعض خصائص الأساليب العربيّة والبيان العربي دون اهتمام كبير بجمال التّعبير وصياغته صياغة يقصد من ورائها اللّذة الأدبية[20]، وهذه العناية غالبة في مقالات الفكر

الإصلاحي على العموم؛ فالجانب الفني الأدبي يقع في الدّرجة الثّانية، ولغة المقالتين السّابقتين خير شاهد على ذلك.

والمتتبّع لمقالات عبد الحميد بن باديس على اختلاف أنواعها وموضوعاتها يلحظ التزامه بالخطّة التي تسير عليها كتابة المقالة من مقدّمة وعرض وخاتمة؛ بحيث نجد كل عنصر من عناصر الخطّة واضح المعالم فجاءت مقالاته على أعلى درجة من التّماسك والتّرابط بين أجزائها[21].

3- فنّ الرّسائل عند ابن باديس:

إنّ الذي يلفتك وأنت تقلّب نتاج ابن باديس من الرّسائل هو تنوّع أشكال التّرسّل عنده، وهذا بحسب المقام الذي كان يريد الحديث فيه؛ فكانت مراسلاته تأتي تارة في صيغة النّداء، وأحياناً تأخذ طابع البيان والمنشور وأحياناً أخرى ينشرها على شكل برقيات أو تلغرافات أو احتجاجات.

هذا التّنوع في طرق بثّ ابن باديس لرسائله خدمه كثيراً في توعيّة الشعب الجزائري من خلال النداءات والمناشير والبيانات الموجّهة له، ومن جهة أخرى أفاده في الدّفاع عن حقوق الجزائريين والمطالبة بها في شكل اعتراضات واحتجاجات ونشر بيانات. وهو تنوّع اتّسم بالطّابع العام؛ ذلك أنّ مكاتباته كانت تربطه في معظمها بالأمّة الجزائرية ونذر من زعمائها وبعض الهيئات الوطنيّة والخارجيّة، وكذلك مثّلت جسرا للتّواصل مع السّلطات الاستعمارية، وهي مكاتبات -كما قلنا- غلبت عليها الصّبغة العامة، وسيطرت الموضوعية عليها بوجه واضح[22].

والمتصفح لزاد ابن باديس من فن الرّسائل سيصادف حقيقة أنّ نتاجه يكاد يخلو ممّا يعرف بالرّسائل الشّخصية[23]؛ ومردّ ذلك عند من تناول ابن باديس ونتاجه النّثري بالدّراسة إلى ضياع بعض رسائله، أو عزوفه الإفصاح عن الجانب الخاص من حياته، ويعزو بعض الدّارسين ذلك إلى أنّ الرّسائل الخاصّة لم تنشر في

الصّحف أو المجلاّت، فظلّت مطمورة في المكتبات الخاصّة[24]، والأكيد هنا أنّ التّرسل ذو الطّابع العام شغل حيزاً واسعاً من اهتمام ابن باديس.

وقد تناول ابن باديس في رسائله الموجّهة إلى عموم الجماهير الجزائريّة قضايا عامة تصبّ في عمق واقع الجزائريين وتطرح انشغالاتهم ملتزما في ذلك الوضوح والدّخول مباشرة في عرض الموضوع المراد التّحدّث فيه، دون أي تزويق أو تنميق في العبارات، فالمهم هنا وهو يتوجّه إلى شريحة واسعة من الشّعب الجزائري وهي الشّريحة غير المتعلّمة أن تصل الفكرة بيسر وبساطة تامة حتّى تكون في متناول وعيهم وثقافتهم، ونقف هنا عند النّداء الذي وجّهه إلى سكّان قسنطينة لمقاطعة الاحتفالات بالذّكرى المئويّة لاحتلال مدينة قسنطينة يقول فيه:

"اخواني القسنطينيين !

في هذه الأيام، منذ قرن، مات أجدادكم المجاهدون المدافعون والفرنسيون المهاجمون في ميدان البطولة والشرف، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة والتضحية للغالب والمغلوب.

ومضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة، وضمد تلك الجروح، وتقريب السكان المتجاورين بعضهم من بعض.

لكن قوما من الأنانيين الذين يأبون إلا أن يكونوا سادة متفوّقين، وإلا أن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين، –هؤلاء القوم– وليسوا كل الفرنسيين– أرادوا في هذه الأيام أن يقيموا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة، تثير العواطف، وتمس كرامة الأحياء منا والأموات، وتنافي مبادئ الأخوة والرحمة التي ندعو إليها.

لهذا قد اجتمعت 14 جمعية إسلامية من جمعيات قسنطينية يوم السبت 18 سبتمبر الماضي في نادي الاتحاد، وكانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها، فقررت –بالإجماع– ما يلي:

نحن– الممثلين لجمعياتنا– نرى احتراما لأنفسنا واحتراما لأجدادنا، واحتراما للإنسانية:

أولا– أن لا نشارك في هذه الاحتفالات ولا نحضرها.

ثانيا– أن نكون في هدوء تام عام»[25]

فالبيان كما هو ظاهر ينطق بغصّة ابن باديس اتجاه ما حاولت السلطات الاستعمارية تذويقه لسكّان قسنطينة من إذلال وإهانة، لكنّه استطاع بفضل نشر هذا البيان امتصاص غضب القسنطينيين وتهدئتهم وعدم تمكين المحتفلين الفرنسيين من استفزازهم؛ إنّ إحساس عبد الحميد بن باديس وتعبيره الصّادق عن جراح القسنطينيين ومحاولة تضميدها أكسبت بيانه تعاطفا جماهيريا كبيرا إلى درجة استجابتهم لمقاطعة الاحتفالات، ولم يتوسّل في ذلك إلى دغدغة عواطفهم وإنّما خاطب عقولهم؛ فليس من المنطقي أن يستشهد الأجداد في حين يشارك أحفادهم مع قتلتهم في احتفالات أراد بها الفرنسيون تذكيرهم بقصّة الغالب والمغلوب.

وعلى غرار معظم بيانات ابن باديس جاء هذا البيان صريحا، مباشرا التزم في عرض أفكاره بالبساطة والوضوح لغة وأسلوبا، فهو لا يحمل عبارات يمكن أن تشكّل استفهاما أو تطرح تساؤلا للمتلقي، فكل ما جاء فيه هو تحصيل حاصل لكن الجديد فيه هو طريقة عرضه.

وقد اتسمت مكاتباته أو بياناته الموجّهة إلى جماهير الأمّة أو بعض هيئاتها أكثر من أي شكل آخر بشيء من سعة الصّدر وطول النّفس نسبيا[26]؛ على اعتبار أنّه يخاطب شريحة تستحقّ شرحا وافيا لاستدراك قلة وعيها.

إنّ سمة الوضوح والقصد والدّخول مباشرة في الموضوع سمة طاغية على نتاج ابن باديس من فنّ الرّسائل، فحتّى الرّسائل الموجّهة إلى بعض الشّخصيات الجزائرية والعربيّة، وبعض الهيئات داخل الوطن وخارجه التي تستوجب نوعا من التّخيّر لأفضل العبارات، وانتقاء لأجمل الصّور التّعبيريّة غلب عليها هذا التّوجه ومن ذلك كتابه المفتوح إلى النّواب الجزائريين الأحرار بالعمالات الثلاث الذي يقول في جزء منه:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وبعد؛ فلا يخفى عليكم أن منزلتكم من الأمة منزلة الركيل المؤتمن، وان بينكم وبين الأمة التي أولتكم شرف النيابة عنها وملكتم حق التكلم باسمها. عقدا يلزمكم بواجبات وحقوق للأمة لا يخرجكم من عهدتها إلا القيام على تحقيقها بالمحافظة على الموجود والسعي في تحصيل المفقود.

ولا يخفى عليكم أيضا أن أعلى وأغلى ما أفرغت الأمة ثقتها عليكم لأجله وجمعت ثقتها المتفرقة فيكم للمحافظة عليه وهو دينها ولغتها وأنها قد تغفر لكم التقصير في كل شيء وتقبل منكم الاعتذار عن كل شيء إلا فيما يتعلق بدينها ولغتها... "[27].

لقد كان بإمكان عبد الحميد وهو يتوسّم من النوّاب الجزائريين الأحرار الدفاع عن دين الجزائريين ولغتهم أن يمعن في مقدمة رسالته بالإشادة بأفضالهم، ويسترسل في عرضها بذكر مجهوداتهم، وبذل المزيد منها لتحقيق ذلك، حاشدا في كلّ هذا ألوانا من البديع، عامدا إلى كثير من الزخرف اللفظي، حتى يستدرجهم ويحثهم على تحقيق المطالب ونيل كثير من جزيل الشكر والامتنان.

لكنّ ابن باديس لم ينصرف إلى كلّ هذا بل نجده في كلّ أقسام الرسالة مصرا على تذكيرهم بواجبهم اتجاه عهد نالوا شرف الدّفاع عنه نيابة عن الأمّة الجزائريّة

وهو دين الجزائريين ولغتهم سالكا في ذلك أسلوب الترغيب والترهيب لا التملّق والتنميق، حتّى يكون في ذلك مقنعا من جهة، ويزرع في داخلهم الإحساس بالمسؤوليّة والاستماتة في استرجاع المفقود من حقوق الجزائريين من جهة أخرى.

وكما هو ظاهر لم يَحْتَجْ عبد الحميد بن باديس في إيصال رسالته بهذه القوّة وهذه الصّور التّعبيريّة المقنعة إلاّ على إحساس صادق بهموم الجزائريين، وأسلوب صريح وواضح في طرح انشغالاتهم على النوّاب، وعبارات مشحونة بحسّ المسؤوليّة كقوله: (منزلة الرّكيل المؤتمن)، (المحافظة على الموجود)، (السعيّ في تحصيل المفقود)، (تغفر لكم التّقصير في كلّ شيء)، (تقبل منكم الاعتذار عن كلّ شيء)، فلا مجال للّعب على أوتار المشاعر في قرارات عبد الحميد ودغدغتها والأمر يتعلق بدين الجزائر ولغتها فهما مُلْزِمَانِ لكلّ من ينتسب لهذا الوطن.

ويظهر هذا الأسلوب المباشر الصريح في برقياته واحتجاجاته الموجّهة للإدارة الاستعماريّة، فهو لا يراوغ، في طرح حقوق الجزائريين والمطالبة بها، ولا يلمح في ذكر واستنكار انتهاكات السلطات الفرنسيّة، وعلى سبيل المثال برقيّة الشكوى والاستنكار التي وجّهها إلى رئيس الوزارة الفرنسية م. دالادى بباريس بعد التّضييق على تعليم الإسلام ولغته نتيجة إصدار قانون 8 مارس* والتي يقول فيها:

"رئيس الوزارة الفرنسيّة م.دالادى .باريس

يا جناب الوزير،

الى اليوم، وفي هذه الظروف ما يزال التضييق متواليا ومتزايدا على التعليم الإسلامي.

فالمساجد محجرة، وكثير من المدارس معطلة، وكثير من الكتاتيب القرآنية مغلقة، وكثير من المعلمين متابعون في المحاكم ومئات الآلاف من أبنائنا مشردون في الشوارع...

يا جناب الوزير:

إنني في هذا اليوم يوم 8 مارس الذي هو أسوأ الأيام في تاريخ الإسلام بالجزائر– أرفع إليكم باسم الإسلام كلمة الاستنكار التام لهذه الحال، وأقدم إليكم باسم المسلمين مر الشكوى من هذه المعاملة الخاصة التي تركت في القلوب أسوأ الآثار وأوجع الآلام»[28].

لم يتوان ابن باديس في سرد انتهاكات السلطات الفرنسيّة بصراحة وذكر آثار تطبيقها هذا القانون على الجزائريين في إيجاز غير مخل بما يريد توضيحه، وهي ميزة طبعت برقياته الموجّهة للإدارة الفرنسيّة، وقد أمدّته صراحته الجرأة ليصف تطبيقات فرنسا بالجائرة والمغرضة بل وينعت الفرد الفرنسي بالأجنبي المعادي، وقد تمكّن بلغته هذه أن يصيب مَكْمَنَ التّعبير بألفاظه السّهلة وعباراته المفعمة بإحساسه الصادق لما تعرّض له الإسلام ولغته.

وما يلاحظ عموما في رسائله على تنوّع أشكالها واختلاف متلقيها اقتضاب مقدمتها؛ فعبد الحميد كما ذكرنا سالفا يدخل مباشرة في عرض موضوعه دون حاجة إلى تمهيد يسهّل عليه الخوض فيه، فقد كان يميل في موضوع رسائله إلى الإيجاز والقصد والتّركيز في عرض أفكارها[29]، وهذا عندما يتوجّه بها إلى السلطات الفرنسيّة وبعض الشخصيات والهيئات داخل الجزائر وخارجها، بينما نجده يميل إلى الإطالة والتّفصيل وهو يخاطب عموم الشعب الجزائري.

الخاتمة:

إنّ ما قدّمه عبد الحميد بن باديس للأدب الجزائري دين لا سداد له إلاّ جزاء من الواحد الأحد؛ إذ لا يمكن أن تختزله عبارات أو فقرات أو مجلّدات، لكن سنة كلّ بحث أن نضع القلم ونجمل ما توصّلنا إليه في النّقاطّ التّاليّة:

1- ظهور عبد الحميد بن باديس مصلحا دينيا واجتماعيا يتحدّث بلسان بسيط وحجّة قويّة أكسباه شعبيّة واستجابة واسعة.

2- قوّة عبد الحميد ابن باديس الأدبيّة تكمن في بساطة أسلوبه وواقعيّة طرحه، إذ وجدناه في أغلب نتاجه النّثري (الخطابي والمقالي والتّراسلي) يتحرّى الموضوعيّة ويجنح لها.

3- إنسانيّة عبد الحميد بن باديس وواقعيّة طرحه وموضوعيّة تفكيره جعلته يتنكّر لطموحاته الشّخصيّة، فجاءت موضوعات نتاجه النّثري تنضح بمشكلات الجزائريين وهمومهم.

4- إنّ إحساس عبد الحميد ابن باديس بهموم الجزائر وشعبها كان سببا رئيسا في وضوح موضوعات خطبه ومقالاته ورسائله وبساطة أسلوبها، فمن غير المنطقي أن يأتي نتاجه النّثري هذا على هذه الدّرجة من البساطة وهو رجل تشرّب اللّغة من أمّهات الكتب العربيّة إلاّ إذا كان هدفه يسمو عن أيّ مكسب شخصي دنيوي.

5- اللّغة عنده لم تكن هدفا، وإنّما كانت وسيلة يسخّرها لخدمة الجزائريين حتّى يستدرك جهلهم وقلّة وعيّهم.

الإحالات:

[1]- محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس). الجزائر، مطبعة الكاهنة، 2003، ص27.

[2]- عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830-1974. ليبيا/ تونس، الدّار العربية للكتاب، ط1، 1398هـ/1978م ، ص24.

[3]- عبد الحميد بن باديس: "خطبة رئيس الجمعية التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة". الجزائر، مجلّة الشّهاب، ج8، مج12، شعبان 1355هـ/ نوفمبر1936م، ص(359-361).

[4]– محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص32.

[5]– عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث1830–1974، ص28.

[6]– محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص33.

[7]– المرجع نفسه، ص34.

[8]– عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس الأستاذ عبد الحميد بن باديس". مجلّة الشّهاب، الجزائر، ج8، مج13، شعبان1356هـ/ أكتوبر1937م، ص(357–361).

[9]– عبد الحميد بن باديس: "خطاب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز الجمعية بنادي التّرقي بالعاصمة". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، ج8، مج12، شعبان1355هـ/ نوفمبر1936، ص(352–358).

[10]– محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبية في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص31.

[11]– عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس الأستاذ عبد الحميد بن باديس". مجلّة الشّهاب، ص(357–361).

[12]– عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830–1974، ص25.

[*]–هي جريدة فرنسية كانت تصدر في تونس، وقد أوردت هذا الوصف لموهبة الشّيخ الخطابية في عددها الصادر بتاريخ19 ماي 1939، بمناسبة خطاب ألقاه في الذّكرى العشرين لوفاة الأستاذ "البشير صفر". انظر رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتّربيّة في الجزائر.الجزائر، المؤسّسة الوطنية للنّشر و التّوزيع، ط5، 1422هـ/2001م ، ص180.

[13]– عبد الحميد بن باديس: "وقالت البتي ماتان". مجلّة الشّهاب، الجزائر، ج5، مج13، جمادى الأولى1356هـ/ 10 جويلية1937م، ص(228–230).

[14]– باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن باديس و محمد البشير الإبراهيمي.الجزائر، منشورات الحبر، ط2، 2007، ص57.

[15]– محمد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847م إلى 1954م. بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط3، 1427هـ/2007م ، ص101.

[16]– محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث في الجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص75.

[17]– عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته وآثاره. بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1403هـ/1983م.ج3، ص255. نقلا عن البصائر، السنة الثالثة، العدد 136، الجزائر، الجمعة 27 شعبان 1357هـ/ 21 أكتوبر 1938م، ص(1،2).

[18]– رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للنّشر و التّوزيع، ط 5، 1422هـ/2001م، ص185.

[19]– عبد الحميد بن باديس: "كلمة صريحة". مجلّة الشّهاب، الجزائر، ج1، مج12، غرّة محرّم1355هـ/ 1936م، ص(42–50).

[20]– عبد اللّه الركيبي: تطوّر النّثر الجزائري الحديث1830–1974، ص137.

[21]– محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبية في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص85.

[22]– عبد المالك مرتاض: فنون النّثر الأدبي في الجزائر1931–1954، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص307.

[23]– محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)،ص36.

[24]– عبد المالك مرتاض: فنون النّثر الأدبي بالجزائر1931–1954، ص307.

[25]– عبد الحميد بن باديس: "منشور المقاطعة نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين". مجلّة الشّهاب، ص(427–429).

[26]– محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص 41.

[27]– وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. ج6، ص197. نقلا عن البصائر، العدد110، السّنة الثّالثة، 21 صفر1357هـ/ 22 أبريل1958م.

[*]– يعرف هذا القرار بقرار شوطان chautemps نسبة إلى وزير الدّاخليّة الفرنسي الذي أصدره، وقد نصّ على إغلاق المدارس العربيّة الحرّة التي لا تتمتّع برخصة عمل، ومنع كل معلّم من مزاولة التّعليم في المدارس المرخّصة إلاّ بعد الحصول على رخصة التّعليم من

السلطات المسؤولة، وأخطر ما في هذا القرار اعتباره اللّغة العربيّة لغة أجنبيّة في الجزائر. انظر أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر. الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1985، ص204.

[28]– وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. ج6، ص295. نقلا عن البصائر، 18 محرّم1358هـ/ 10 مارس1939م.

[29]– محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ص41.